Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

# المرأة موؤودة حريتها مفقودة

## (قراءة في رواية وادي الحناء لجميلة طلباوي)

The woman's freedom is lost

(A reading in the novel Wadi al-Henna by Jamila Talabawi)

حادي نورة

جامعة - بشار

haddinoura08@gmail.com

المؤلف المرسل : د/ حادي نورة الإيميل: haddinoura08@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023-06-18 تاريخ القبول : 2023-09-19

**الملخص :**

كتبت الروائية كلماتها على أوراق الحناء، فهي تحتفل بالأنثى وتعظمها، وتسعى لرفع الكدح عنها من خلال نموذجها البطل (عويشة) المرأة التهاوية الصمودة، التي حاربت كل الصعاب من اجل الوصول إلى غايتها، وتكون نافذة لكل نساء القرية هناك.

تيمي التسمية القديمة لمدينة ادرار حيث القهر،والظلم، والعبودية، بعيدا عن نموذج البطلة، بل لنماذج أخرى تحكي قصة العبودية،وبأشكال مختلفة.

فبخلاف البطلة نموذج الكفاح والقوة، تتربع النساء الأخريات على حكايات الأنوثة المغتصبة، فلا هي لباس له (الرجل)، ولا عاد بينهما المودة والرحمة، ولا أصبحت مدنية لتسكنوا إليها، فلا شيء من هذا حضر، ولا مفاده حصل، بل غاب وجه الحرية والفرح، واضمحلت أوجه أخرى للحزن والعبودية.

فإلى أي مدى استطاعت الروائية كشف الواقع الذكوري المتعفن الذي تعيشه المرأة ،حيثما كانت في جو مأساوي ،جعلنا نتعاطف مع المرأة الصحراوية،ونستحضر بقايا قهر جاهلية في ثوب جديد؟؟

**الكلمات المفتاحية :** الحرية، أوراق الحناء، جميلة طلباوي، السرد، الصمود.

## Abstract:

The novelist wrote her words on henna papers, as she celebrates and glorifies the female, and seeks to relieve her of toil through her heroic model (Aweisha), the steadfast, apathetic woman, who fought against all odds in order to reach her goal, and to be a window for all the women of the village there.

Timi is the old name for the city of Adrar, where oppression, injustice, and slavery are located, far from the heroine model, but rather other models that tell the story of slavery, in different forms.

Unlike the heroine, the model of struggle and strength, the other women sit on the stories of the usurped femininity, so she is not a garment for him (the man), and there is no longer affection and mercy between them, and she has not become a civil one for you to find comfort in, so none of this was present, and there was no meaning that happened, but rather the face of freedom and joy was absent, Other aspects of grief and slavery have disappeared.

To what extent was the novelist able to reveal the rotten masculine reality that women live in, wherever they are in a tragic atmosphere, that made us sympathize with the desert woman, and evoke the remnants of ignorant oppression in a new dress??

Keywords: freedom, henna leaves, Jamila Talabawi, narration, resilience..

**مقدمة:**

تبحث الرواية العربية عما يحقق جماليتها ويجعلها خطابا متجددا منفتحا من خلال تمردها على الأشكال المعهودة والبحث عن أساليب وتقنيات جديدة، ولاشك في أن الرواية الجزائرية المعاصرة قد دخلت مغامرة التجريب لعرض إشكالات الواقع وهموم المجتمع، وقد جاهدت الرواية النسوية الجزائرية في تعزيز مكانة المرأة والثورة على تقاليد الكتابة الذكورية واستيعاب تجارب المرأة ومشاغلها ورسم لوحة خصوصية للمجتمع الجزائري حتى أصبحت الجنس الأدبي الأكثر انتشارا بعد أن كان الإبداع النسوي مقصى مهمشا.

وهناك العديد من الروائيات اللاتي أبدعن في كتابتهن، وعالجن العديد من القضايا التي تخص المرأة، ومن بينهن "الروائية جميلة طلباوي" التي جسدت عدة صور للمرأة في رواية "وادي الحناء" ،وإن كانت تجمع على النظرة الجاهلية المحتقرة للمرأة الصحراوية ،ومن خلالها المرأة الجزائرية خاصة والعربية عامة .

ومن ثم كان الدافع وراء اختيارهذا الموضوع هو الاهتمام بقضايا الرواية النسوية كونها موضوعا يحتاج إلى الدراسة والتحليل،كي لا يصنف ضمن الآداب الهامشية،ضف على ذلك كونه يعبر عن تجربة ذات خصوصية بعيدا عن الصوت الأحادي المركز ي(الذكوري)، كما لا نعدم كشفه عن خلفيات تاريخية واجتماعية شكلت قضايا المرأة وهمومها،وكذا البعد الخفي لنظرة المجتمع للانونة المغتصبة التي باتت عارا وعيبا وجب مواراته أو القضاء عليه ،تهميشا واحتقارا واهانة ،بل وتقزيما لادائه الذي اقتصر-بمنظور الآخر-على الطبخ و الإنجاب .

كل هذا دفع إلى طرح إشكالية تتعلق بالبحث في ماهية الأدب النسوي؟ بين التهميش والنبذ وفرض الذات ،وأهم الموضوعات التي طرحتها الرواية ؟و من خلالها شكلت صورة للمرأة في رواية "وادي الحناء" ؟فإلى أي مدى تمكنت الإعلامية الكاتبة " جميلة طلباوي" رسم ملامح هذه الصورة أو الصور للمرأة التيماوية( الأدرارية) والجزائرية ككل؟

تصور الرواية تجربة إنسانية تعكس موقف كاتبها إزاء واقعه كما تفصح عن مدي فهمه لجماليات الشكل الروائي.

وإذا كان طموح الفن دومًا هو رصد الواقع والتعبير الجمالي عنه وعكس حركته، فإن الرواية

الحديثة- أقرب إلي عوالم الأدب بتقديم صورة حية له- حيث لم تشكل ( المرأة )استثناءا في التعبير عن الواقع المتعفن ،وكشف مستوره،خاصة تلك النظرة الإقصائية ،الدونية لأهم فرد من أفراده، ألا وهي الأنوثة.

فالمرأة نصف المجتمع-لا جدال-إن لم نقل أنها كل المجتمع، فقد كانت - في الفن كما هي في الحياة- ملهمة.. وراعية..وشريكة حياة.. ودافعة للحرية..ومحركة للآمال..كما كانت لدي البعض أيضًا مصدرًا للآلام والأحزان.

**- ما تكتبه المرأة وما يكتب عن المرأة بين الرفض والتأييد :**

إن ظهور ما يسمى بالأدب النسوي دارت حوله الكثير من المناقشات والمناظرات، إذ أنه يركز على المسائل النسوية وقضايا المرأة التحررية، فقد حاولت المرأة أن ترقى بأدبها من مجرد أنها موضوع لغوي مكتوب إلى ذات نشطة في المجتمع فلجأت إلى الكتابة لتخليص نفسها من السلطة الذكورية.

ويعد مصطلح الأدب النسوي من المصطلحات التي تتسم بالغموض و الحيرة ، وعلى الرغم من ذلك فقد راج في المدونات النقدية بوصفه مصطلحا جديدا تنبع خصوصيته من خصوصية المرأة التي دخلت عالم الكتابة بعدها، فلم تعد كائنا متطفلا ،وعنصرا فضوليا دخيلا ،بل انتقلت إلى بؤرة الحدث ،ومنه و إليه ترتقي ، وبالتالي "كانت خارج اللغة سعت إلى الدخول إليها والتلبس بها، و الإنغراس في داخل الوجود اللغوي، ليس بواسطة الحكي، كما كانت الحال فيما مضى، وإنما عبر الكتابة بواسطة القلم"([1]). لا عادت الأنثى شهرزاد ،ولم تقبل بشهريار وريثة له،جاءت لتثبت حضورا مستقلا من نوع مخالف .

فالأدب النسوي من المصطلحات الحديثة النشأة، إذ ظهر في الآداب الغربية وانتقل للساحة العربية خلال مرحلة النهضة بحيث " ظهرت إشكالية الكتابة النسوية العربية بوصفها مصطلحا جديدا، لافتا للنظر، له طبيعة جمالية تنبعث من خصوصية حياة المرأة الذاتية وعلاقتها الاجتماعية "[(2)]. فالمصطلح دخيل على الثقافة العربية،جديد فحواه ،في حين كتابة المرأة ،والكتابة عن المرأة موجودة مذ وجد الأدب،وحيثما كانت المرأة والفن .

وعليه " فقد لعب الأدب دور المنفعل الإيجابي بالتعبيرات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع العربي إبان النهضة، إذ عمل على تعميق روح التمرد والثورة ضد ظلم المستعمر واستبداد الرجل ، ولقد أتيحت للمرأة العربية بدخولها ميدان التعليم فرصة المساهمة والحضور في مختلف الميادين بما فيها الميادين الأدبية" [(3)] فقد دخلت المرأة مجال الأدب من بابه الواسع ، حتى لكأن الفن هو العملة الثانية للأنثى ،وبدونها يفتقد التنوع ،والتألق ،والذوق .

و قد اختلفت مفاهيم الأدب النسوي و تعددت ،بتعدد المرجعية ، والمنطلق ، و الخصوصية أيضا ، من هذا المنظور أدخل الأدب النسوي خانة أدب الهامش لجملة من الاعتبارات ، كون أن الأدب النسوي ، يشير آليا إلى آخر رجالي والذي يشير بدوره إلى وجود خصوصية واختلاف في طرق التفكير وبالتالي في الكتابة والطرح، ومن ثمة تعددت الآراء وتضاربت بخصوص هذا الأدب؛ بين مؤيد جعل من ذلك الاختلاف والمغايرة ضرورة إبداعية قد تكسب مشروعية وهوية هذا النوع من الإبداع، وبإزالة تلك الفوارق يفقد هذا الأدب هويته وكيانه.

وبين معارض جرد الأدب النسوي من مصداقيته وأحقيته في الكتابة والإبداع ، على أساس أنه تجرأ على كسر أعراف وطقوس المؤسسة الاجتماعية وتحديدا الذكورية ؛ ذلك " أن انتقال المرأة إلى مستوى انتزاع بعض شروط الكتابة من الرجل عن ذاتها وعن اختلافها بدون وصاية أو ارتهان... يدخل ضمن صراع القوى" [4] ؛ وكأنّ المرأة بفعل الكتابة قد تجاوزت حدودها ، وانتهكت حق غيرها ، بل و الأكثر من ذلك ، هناك من اعتبره جرما ،وخطيئة وجب التبرء منه ، فإن تكتب المرأة معنى ذلك أن تعبر وتتكلم وتقول ؛ و بالتالي تفعل وتطبق ،ومن ثمة تستطيع أن تنافس الرجل في سلطة بناها وفق منطقه ومقاييسه ،لا خيار للأنوثة فيها،و لا تبديل ، ومن وراء هذه الخلفية تكوّنت لديه مجموعة من الآراء والتهم فيقرأ النص النسوي كرافض لما كُتِبَ لا كمرحب للإبداع، وبمنطق الدونية هذا قوبل الأدب النسوي ،فكان الرفض ،والتحقير،ومن ثم التهميش.

وإن كان الرفض لم يمنع محاولة ضبط المفهوم ،فقد عرف فاكت الأدب النسوي كونه :" هو الأدب الذي تكتبه المرأة مستسلمة فيه لجسدها والذي نلمح فيه الأكليشيهات الكتابية " . [5] فالأدب النسوي من خلال هذا التعريف هو ما تكتبه المرأة مع الإفصاح عن جسدها ،، وهذا ما ذهب إليه الباحث " عبد العاطي كيوان" الذي ربط كتابات المرأة بالجسد والشبق وجعل منها علاقة تلازمية بل قاعدة إذ" يرى أن الإبداع النسائي لون الكتابة والكتابة الخاصة ، قصد به شيء من المكاشفة تحكي فيه المرأة عن جسدها وشبقها إذ تخبر ذلك عن الرجل الذي نصف الشيء من خارجه فالمرأة حسب رأيه تكتب جسدها بطريقة مباشرة فيها كثير من الابتذال ، وهذا ما أبان عنه في كتابه " أدب الجسد" وتحديدا في الجزء الثالث المعنون بـ- أدب الجسد- البورونوغرافيال pornography هذا المصطلح الذي يعني كتابة العاهرات" أو الأدب المكشوف الصريح أو أدب الفراش إنه باختصار أدب الذات العاهرة "[6] ؛ ومن خلال هذا الوصف نستنتج أن الباحث يربط مصطلح الكتابة النسوية ويحملها دلالة الشبق و العهر ، وهذا ما عبرّ عنه بقوله " امرأة تتقمص دور العاهرة أو عاهرة تتقمص دور الكاتبة " .

والحق الحق نقول: صحيح أن المرأة بحكم وجودها في مجتمع ذكوري تسعى غالبا من خلال فعل الكتابة إلى إبراز تلك الخصوصية التي تميزها عن الرجل ،وذلك عن طريق إظهار جسدها بشكل مغاير أي؛ توظيف لغة الجسد ،إلا أنه استثناء لا

يشكل القاعدة ،أو قاعدة لها استثناءاتها، فهناك نصوص كتبتها امرأة تجاوزت مثل هذه المواضيع إلى قضايا أهم تخص المجتمع، الثورة و الوطن ، على سبيل الذكر لا الحصر كتابات زهور ونيسي الثورية ،المجاهدة التي ألهمتها الثورة ، فأنجبت نصوصا إبداعية حافلة بالوطنية ،و لغة النضال ،نضال من أجل إعلاء كلمة النصر،وحلم الحرية المغتصبة .

في حين لا نغفل أن الأدب حافل بكتابات رجالية تعرضت لموضوع الجسد والشبق بطريقة إباحية مبتذلة،فهل ما هو رجالي مباح ،يكون في الآن ذاته نسائي محرم ،أم أن الفارق فقط خصوصية الجنس ،وهاجس التمرد.

مقدمات كانت نتيجتها تنم عن أن الكتابة السنوية "بمثابة الرقص في حقل الألغام" [7] ؛ وهو قول لا يتردد عن ربط وعلاقة بين فعل الكتابة والخطيئة ،بين الإبداع والتمرد ،" وكأنّ هناك شيئا لا واعيا في الرجل يقاوم الاعتراف بقدرة ما يمكن أن تمتلكه المرأة،... إلا القدرة على الكذب والخيانة،... هي إذن لا تقدر على الكتابة والإبداع هي تضع وتلد ، أما فعل الإبداع فهو المجال المخصص للرجل[8]

وهو اعتراف ضمني بلا مشروعية الأدب النسوي لمجرد أن الذي كتبه هو من جنس مغاير، وهي المرأة لأن المرأة ،ذلك المخلوق الذي وجد أصلا كموضوع للطعام والجنس والبطالة [9] ؛ وهي بهذا تكون بعيدة عن مجال الإبداع والكتابة،لا تصلح سوى للإنجاب والعطل ،وفي هذا الرأي ما فيه ،من تقزيم وتحقير للأنوثة، رأي يضاف إلى القول السابق في عدم الاعتراف بلا مشروعية الأدب النسوي، والحقيقة أن المرأة أكبر من ذلك بكثير فهي كائن يحس ويفكر ويعبر ويبدع .

ولسنا وحدنا من يدعم هذا القول ،فهذا الناقد " رولان بارط" في كتابه الميثولوجيا " يعترف بأن" المرأة مصدر إبداع في كل المجالات فهو يساوي بين قدرتها على الإنجاب وقدرتها على الإبداع والكتابة [10].

وقد ظهرت تسميات أخرى للأدب النسوي وصلت إلينا عن طريق الترجمة «إذ ظهرت في السويد تسمية هذه الكتابات بأدب "الملائكة والسكاكين" وهو الحال عند "أنيس منصور " حين أطلق عليه ما كتبته المرأة "أدب الأظافر الطويلة"، كما سماه "إحسان عبد القدوس " أدب"الروج والمانكير " إذ رأى فيه أدبا صوتيا وشكليا تعتني المرأة فيه بالتأثير الريفي. [11]

فصفة النسوية توصف بأنها نضال لإكساب المرأة المساواة في دنيا الثقافة الذي يسيطر عليها الرجل فهي تعني «: الاعتقاد بأن المرأة لا تعامل على قدم المساواة لا لأي سبب سوى كونها امرأة في المجتمع الذي ينظم شؤونه ويحدد أولياته حسب رؤية الرجل واهتماماته[12]

وبالتالي نلحظ أن هناك إجماعا على أن النسوية في أصلها عبارة عن حركة سياسية تعنى بالدفاع عن حقوق المرأة السياسية وكذا الفكرية ،أكثر من كونها محاباة للإبداع والفن.

في حين ينم الأدب النسائي عن نوع من التخصص المؤدي إلى الحصر والانغلاق في دائرة جنس النساء وما تكتبه النساء من وجهة نظر النساء سواء أكانت هذه الكتابة عن النساء أم عن الرجال، أم عن أي موضوع آخر«فخصوصية

الكتابة النسائية لا تعنى وجود تميز مطلق بين الكتابة الذكورية والأنثوية، ويرجع ذلك ليس فقط كون المرأة الكاتبة قد قرأت الكثير من الأعمال الأدبية لكتاب رجال وانطبعت بنماذجهم الثقافية ؛ [13]« فالأدب النسائي موضوعه المرأة بغض النظر عن كاتبه سواء أكان رجلا أو امرأة، فالنسائية تشتغل على الذات لا على الموضوع.

و بالتالي تغدو الكتابة بالنسبة للمرأة أداة ووسيلة تعبر بها عن ذاتها ولذاتها ،مستعيدة حريتها وتفردها .

ويقترح بعض الدارسين استخدام مصطلح " النص الأنثوي " بديلا لمصطلح الكتابة النسوية، «إذ أن مصطلح النص الأنثوي يعرف نفسه استنادا إلى آليات الاختلاف، لا الميز وهو في غنى عن المقالة التقليدية"مؤنث/مذكر" بكل محمولاتها الإيديولوجية الصدامية[14] «. وهي محاولة لطرح بديل عن النسائية إذ ترى في الأنثوية معادلا موضوعيا لأدب المرأة ،يميز عن الآخر ،حتى لا نقول الرجل .

إن مصطلح الأدب النسوي أو النسائي أو الأنثوي على الرغم من الحمولة التاريخية أو المعرفية أو التجنيسية التي تحملها هذه المسميات يبقى مصطلحا إشكاليا ،فالإبداع هو الإبداع أيا كان جنس كاتبه ،وجمال النص وتفرده هو من يحقق الغاية والشعرية ،فاختلاف الجنسين بطبيعته يولد اختلاف النصين ،ثم إن هذا التنوع هو سبيل الجمال و الخلق ،وضرورة حتمية لتحقيق الثراء والتميز،فالجوهر في الإبداع الفني والأدبي هو طابعه الجمالي لا غير.

وخلاصة لما سبق يمكن القول ؛ إن الكتابة النسوية تبقى حلقة من حلقات الإبداع الأدبي لها سماتها الفنية والموضوعية التي تكسبها الخصوصية والتفرد ، ثم إن فعل الكتابة - من حيث هي تعبير عن الذات واثبات للوجود – أرقى من أن تصنف على أساس جنسي وبيولوجي.

**وادي الحناء فضاء للتهميش ورفض الأنوثة:**

كتبت الروائية كلماتها على أوراق الحناء، فهي تحتفل بالأنثى وتعظمها، وتسعى لرفع الكدح عنها من خلال نموذجها البطل (عويشة)المرأة التهاوية الصمودة، التي حاربت كل الصعاب من اجل الوصول الى غايتها، وتكون ناقدة لكل نساء القرية هناك.

تيمي التسمية القديمة لمدينة ادرار حيث القهر،والظلم، والعبودية، بعيدا عن نموذج البطلة، بل لنماذج أخرى تحكي قصة العبودية،وبأشكال مختلفة.

فبخلاف البطلة نموذج الكفاح والقوة، تتربع النساء الاخريات على حكايات الانوثة المغتصبة، فلا هي لباس له (الرجل)، ولا عاد بينهما المودة والرحمة، ولا أصبحت مدنية لتسكنوا اليها، فلا شيء من هذا حضر، ولا مفاده حصل، بل غاب

وجه الحرية والفرح، واضمحلت أوجه أخرى للحزن والعبودية.

في توات (تيمي) وفي قصر سيد الشيخ تحديدا يصنف البشر الى صنفين عبيد واسياد، او لنقل نساء ورجال، لازالت محرومة من حق العيش، حق التعليم حق التنقل، واختيار شريك الحياة.

وقد تحصل على لقب السيادة، والمكانة الاجتماعية الراقية بعد نوع من هذا الزواج "سيناديها الجميع لالة مريم بعد ان يتم قرانها بالحاج جلول سلطان القلوب في تيمي وما جاورها"[15].

وقد تخطب المرأة الرجل على غير عادة،وتمد له بعربون المحبة مثل ما حدث مع لالة سعدية، بل وقد تشاركه زوجاته في حفل ضرتها، إرضاءا وكسبا لمودة "وما كان يضحكهما أكثر هو مشاركة الزوجتين الأولى والثانية في حفل زفاف حبيبهما وزوجهما الحاج جلول، كانتا تحرصان على ارضاءه وسعادته، ما كان يهمهما هو ان تعيشا في كنفه، وان يغمرهما بسحره"[16].

فهل هو سحر حقا ام انه إعادة اعتبار للصنف الذكوري، وقلب للموازين، مقابل شيء من السعادة المزعومة، وباقتناع من انه "هذا سيدنا وتاج رؤوسنا، ما يدخل بيننا الشيطان"[17]الرجل الذي تنسب له مدينة بأكملها "أعطيت بنتي مريم لصاحب تيمي"[18]فهو السيد والحكم، ونساؤه الطاعة والخدم وفي الضفة المقابلة، لاكما النساء الرجال، مضيق عليهن، ومفروض على مصائرهن، واقدارهن باسم العرف والتقاليد "....بقدر بناته ان يتزوجن خارج القرية، على خلاف عاداتهم واعرافهم التي تلزم الفتاة بالزواج بقريب لهما، وان تبقى في نفس القرية"[19].

هذه القرية التي تضغط بعنف على قدر المرأة وتجعلها محرومة من أحب الاختيارات لديها ألا وهي اختيار شريك الحياة وهو الأمر الذي يصر عليه سيدي الشيخ رئيس، الزاوية والمسؤول عن أمورها، الذي يعد مسؤولا أيضا عن زواج بناته حسب ما تفرضه العادة، وتقره مدينة الحناء "....عندما قرر سيد الشيخ تزويجهما من قريبين له كما يليق بنسبهما الشريف، حسب العرف الذي

يمنع بنات العائلة من الزواج بالأجنبي عن القبيلة"[20] ولا حيلة للمرأة إلا الاستسلام بمرارة لهذا العرف، الذي لا بديل عنه "حزنت البنات وتسربت معلومات حول حزن العريسين أيضا، فكل من الشابين فقد تمنى الزواج من فتاة يختارها، كما تمنت البنات الزواج من شابين تكون قد سبق لهما رؤيتهما، لكن العرف يفرض عليهما ألا يرى الزوجان بعضهما البعض إلا ليلة الدخلة، كما يفرض العرف على الزوجين الإقامة في بيت سيدي الشيخ، في الجناح المخصص لابنتين"[21].

فالرواية تعالج قضية العرف والزواج المفروض على المرأة،لا التماسا لحياتها ومستقبلها، بل خدمة لأغراض اجتماعية أخرى، يأتي في مقدمتها نسب شيخ الزاوية، والحفاظ على نسله.

وليس هذا فحسب فالمرأة محرومة أيضا من الخروج، والاطلاع على العالم الخارجي بمجرد تفتق مظاهر الأنوثة فيها، أو إذا أصبحت خادمة للولاء، يظهر ذلك في تحلق بنات شيخ الزاوية بإحداهن إذا ما طارت خارج القصر، بعيدا عن قيوده، كما حدث عند زيارة السيدة (لالة مليكة) لوهران قصد العلاج،إذ وجدت "نفسها محاطة بحفيدات الشيخ يسألنها عن البحر وكلهن عطش للعالم الخارجي".

هذا العالم الذي يحرمن منه في سن مبكرة "فقد وصلت إلى مرحلة البلوغ وأصبحت ملزمات باتباع عرف العائلة الكبيرة، وعدم مغادرة البيت كونهن حفيدات الشيخ"[22].

فأي عرف هذا الذي يحرم الأنثى، ويسجنها قدرا وعرفا، لتظل حبيسة القصر تنفذ التعليمات، وتلبي الأوامر، في سبيل مواصلة النسل، والحفاظ على عرف القبيلة.

وما أثار استغرابي، وزاد من التحامل على هذا العرف، هو البديل الذي طرحته الروائية (المجتمع التيمي) للتخفيف من عبء هذا الحصار، ولعله أقبح من الجرم نفسه هو جلب المجلات من دول الجوار، المشرق (مصر، لبنان...) نافذة أخرى للتهوية باسم الحرية، الطريق الوحيد إلى العالم،إذا كان ينقل العالم بصدق حقا و "قرار سيدي الشيخ بتقديم البديل لهن بعد أن حجبهن

عن الشارع بحسب تقاليد العائلة الشريفة... البديل كان عبارة عن مجلات وجرائد عربية تصلهن من بلدان الخليج والمشرق العربي..."[23].

فالحفيدان محرومان من الخروج، ولا يمتلكن وسيلة للثقافة والتسلية وملأ الفراغ سوى قضاء أوقات طويلة على فراش صوفي وثير، يقلبن صفحاتها، بحثا عن عالم آخر ولو حلما، وحلما بفارس أحلام وان جنونا كاستغلال ركن المراسلة، وأخر فساتين الموضة، وتسريحات الشعر، وقصص الغرام،... سبل لطرح بديل آخر لواقع مرير يقهر المرأة ويسحق قدرها ولم تسلم عويشة بطلة الرواية من مطاردة غزيرة بالأسئلة، وحب التطلع لعالم البحر بوهران عندما قصدتها للدراسة،وكل ما يبعدهن عن سجن القصر وقهره وليس بعيدا عن هذا القهر كان حظ (لالة حليمة) زوجة سيدي الشيخ التي يبدو للراوية بأن "لالة حليمة هي أيضا كانت محظوظة حين اختارها الشيخ زوجة له بعد وفاة زوجته الأولى، فارتقت منزلتها الاجتماعية، لكن الضريبة كانت ان لا تغادر البيت الكبير إلا إلى قبرها..." زوجة سيدي الشيخ لا تخرج، لا تغادر بيت الشيخ أبدا مهما كانت الظروف والأحوال: "لالة من دار سيدنا لقبرها"[24].

فهي ممنوعة من الخروج حسب الأصول فهي زوجة شيخ الزاوية[25].

فنلاحظ كيف جمعت بين زواج المرأة والمكانة الاجتماعية،وكأنها لا تكتسب بهذه الرفعة إلا بعد عقد قرانها، حيث تصبح (لالة) بمعنى السيدة، لها من الاحترام والوقار ما يمكنها من الحصول على لقب، قد لا يبدو جليلا، بل نراه سجنآخر تودع فيه حتى مماتها، فهذا النوع من الزيجات يطرح مقابلا غير متكافئ، ويؤدي إلى نوع من التمويه في رفعه المرأة وتقديرها، بنوع من الجهل، وقلة الوعي، والثقة الكاملة في التقاليد والتشبث بها، ضف أنها محرومة حتى من العلاج خارج القصر. فالطبيبة هي من تزورها وتقدم لها الوصفات الطبية الطبيعية.

وباختصار لم تخلق المرأة إلا للإنجاب، وخارج هذا الإطار لا معنى لحياتها، وهو أمر

يكسبها بالمقابل، الحظوة والاحترام، فعند طلاق سي عثمان لزوجته العقيم لالة مليكة، لم يعد يفكر في أنثى تزين أيامه، وتملأ عقمه المرير بل كان يراها مسالة إنتاج للولد، والحفاظ على النسل،فالغاية في الحصول على الأطفال كانت تبدو له (ومن خلاله المجتمع التيماوي) وسيلة نزيهة في البحث عن هذا القران ولا "بأن ما يهم السي عثمان حاليا هو الوعاء الذي ينجب له الذكر ويضمن استمرارية اسم العائلة، ذكرتني بأن زواج الشريف من الأمة يجعلها تحصل على نفس حقوق السيدة إذا ما أنجبت له الولد..."[26].

حتى أصبحت وصية الأم لابنتها "المرأة لا تخلق الا لتتزوج" "بأن لا تنجرف وراء حلم الدراسة فأنسى أنوثتي أن أكون اسرة"[27] فالمرأة خلقت لتتزوج "صرت متأكدة بأن الفرح الحقيقي في عرفنا هو أن يصبح لي زوج وأولاد"[28]وأن المرأة لا تكتسب قيمتها خارج هذا القدر "صرت أنثى كباقي البنات، علي أن أفكر في الزواج والإنجاب "[29].

المرأة في العرف التيماوي تعيش على هامش الحياة، وبمجازاة القدر طالما لم يعد له زوج وأبناء، بل تراه الكاتبة (المجتمع) تمردا على العادات والتقاليد، بل أكثر من ذلك فقد يجلب العار للعائلة، إذا ما فكرت احدى بناتها في الخروج للعمل وطلب العلم، تماشيا مع الحديث "فريضة العلم فريضة على مسلم ومسلمة".

يظهر ذلك من خلال معارضة أهل البطلة بشدة سفرها نحو الجامعة لإكمال دراستها "ثم راح يذكرن بالعار الذي سيلحقنا جراء مخالفة العرف، ستنبذها القبيلة،سيكثر القيل والقال كلما تنقلب وعدت، أكد خالي أن ما سفري إلى وهران للدراسة في الجامعة سابقة خطيرة"[30] فهو مخالف للأعراف في تيمي ولا يساير قانون الطبيعة التي ترى في المرأة ورقة حناء تتكاثر وتمد أغصانها في بيت الزوجية، فكما العلم محرم، وممنوع، فكذلك "العمل لا يليق بفتاة، الفتاة خلقت لتكون معززة مكرمة في بيتها"[31]

فالكاتبة كما ترى في الزواج والإنجاب معزة للمرأة، وسببا لكيونتها، تلمس فيه سحقا، وقهرا لوضعها باسم العرف والتقاليد، وانقسام المجتمع الى أسيادوعبيد، وتواتر مصطلح "لالة" و

"سيدي" وما ينم عنه من طبقية وعرفية في المجتمع، زاده تأكيدها على اللون بضربه الأبيض والأسود.

فالنساء خدم لبيت الزاوية، وملك له، وهن يخضعن بالخدمة والتفالي "سيدي السلطان، سيدي السلطان"[32]وهو النداء الأقرب لابن سيد القبيلة "خيار القول ما قال سيدنا تقول لا له" وهو لفظ يحمل التوقير والإجلال، حب العبودية كنداء الخادم للحر،"لالة بنت سيدي"[33] "الله يبارك لسيدنا ولد سيدنا"[34] "بعروس سيدها سي عثمان"[35].

فالخادمات يتفانين في أداء واجبهن، وخدمة الزاوية "وقفت داباكة مرتبكة والفحم لازال يطلي جزءا من دراعها، وساقاها من فرط بقائها في المطبخ لإعداد أصناف الطعام لضيوف الحاج بالمناسبة الدينية العظيمة "[36] فلا زالت المرأة تستعمل الفحم للطهي وبفناء قاتل، همها هو إرضاء شيخ الزاوية، ونيل بركته، ولو كلفها ذلك حياتها "الخادمة زازة التي كرست حياتها لخدمة الزاوية وأهل سيدي الشيخ فلم تتزوج ولم تنجب أطفالا"[37].

أي قدر هذا الذي يجعل المرأة تحرم من الأنوثة ووظيفتها في الوقت الذي تعتبر فيه الأخيرة سببا لوجودها، وغاية لبقائها.

وقد حملتها الكاتبة نوعا من الأوصاف ما يجعلها ذات رجلين مشققتين وشفاه غليظة "عضت داباكة على شفتها السفلى الغليظة بخبث..." ومن هذا التفاني والتضحية وضع الخادمة فانة "تضع قفة كبيرة على رأسها... ثم راحت تمشي متمايلة بجسمها القصير الممتلئ، وبثوبها المزركش، منتعلة حذاء من النايلون، والخادم الحمال يتبعها..."[38] وتحمل أكثر من قدرتها بأرجل تكاد تكون حافية تفانيا وحرصا على إرضاء شيخ الزاوية، وكسب الحظوة والبركة.

وهنا تفننت الكاتبة في وصف الخادمة فانة: فهي كالبطة لامتلائها وقصر قامتها وحركتها المتمايلة أثناء المشي، وحفاء قدميها، وما تتركانه

من غبار خلفهما لفرط وقع قدميها على الأرض، ثقلا وحمولا.

وككل الخادمات كانت الخادمة زازة تظهر بملامح التفاني والإخلاص في العطاء، لا حملا لقفة هذه المرة ولا ترديدا لعبارات، بل جمالا وعطرا ساحرين على غير عادتها، و"عوض رائحة البصل والفحم، كانت تعبق من ايزارها روائح البخور والطيب"[39].

وكان الأنوثة كلها سبادتها وحذمها تشارك الإبن الوحيد لشيخ الزاوية مراسيم الفرح، وكأنه أيضا لا يحق لهن العبث والسرور، إلا فيما يناسب شيخ الزاوية وأحفاده، تعبيرا "عن فرحتها بعروس سيدها السي عثمان"[40] الذي لا يرد له طلب، ولا يعترض له بشر، فكلهن امتثال لها يمكن ان يسبب له الرضى، ويبعده عن الغضب، فما هي الخادمة تغضب غضبا شديدا بدلا عنه عندما طارت الورقة النقدية التي سلمها لعويشة، فقد بدأت "توبخني وتذكرني بأن السي عثمان هو سيدي وعلي أن اطيعه، وأن اقبل هديته،.."[41]،وبالتالي غدت مثال المرأة المسحوقة التي تضحي من أجل أن يسعد الآخرين كما حدث مع "الخادمة زازة التي كرست حياتها لخدمة الزاوية وأهل سيدي الشيخ فلم تتزوج ولم تنجب أطفالا"[42].

كما تواتر ذكر المولاة: لالة حليمة، لالة مريم،لالة مليكة، لالة حسنة، لالة مينا، لالة عائشة، لالة فاطمة، لالة حفصة،.. وغيرهن كثير في مقابل ذكر الخادمة زازة، الخادمة فانة،داباكة ...وغيرهن حيث خيمت نظرة طيفية على شخصيات الرواية، وقسمنها إلى صنفين السادة والعبيد مركزة على جنس المرأة بإعتبارها مثال التضحية والوفاء، والتفاني في سبيل البقاء.

وإن وضعت الكاتبة إستثناءا من ان موجة لتحرير العبيد طفت مع المدينة، إلا أنها لازالت ماكثة في بعض بيوت تيمي خدمة لشيخ الزاوية الحاج محمد بلكبير تبركا، وتقديرا له، ومن ورائه لكل مشايخ المدينة، نذرا وتفانيا.

فنظرة الاستعلاء الذكوري لم تتغير، ووضع المرأة المقهور مستمرا خاصة كانت أم سيدة،

وحتى المتنفس الوحيد للكاتبة، ونموذجها المثابر ممثلا في شخصية عويشة، لم نيل الحظ الكافي من الرفعة والمكانة المرموقة، هب أنها حلم مدينة بكاملها، ومثالها المحتذى. وهو ما أكدته لالة حليمة لزوجة الرئيس من أن عويشة تمثل "الأمل بالنسبة لهن، ومستقبل المرأة التيماوية الجميل عويشة تكون حاجة كبيرة في البلاد... بركتك يا لالة فاطمة الزهراء"[43].

فهل رتبة التعليم هي أكبر ما تتمناه المرأة التيماوية،وحلم زوجة سيدي شيخ فكيف للنجاح أن يتوقف عند حدود مهنة التعليم، وإن له أن يزين مدينة بأكملها كما تزين الحناء كف ام أن صحيح أن لون الحناء لا يعطي ثماره إلا بعد السحق والخلط، لكنه كان مبتورا، مغتصب.

وقد حاولت الكاتبة توفير الجو والتهيئة "كانت تدرك بأني لا انال خطأ من التعليم إذا ما غادرت تيمي، وأقمت عند إخوتي الذين لا يقبلون خروج الفتاة للتعليم، بيت سيدي الشيخ كان البيئة الملائمة في اعتقاد والدتي لالة مريم كي أتلقى العلم، وأن تصبح لي مكانة اجتماعية خاصة تليق بتضحيتها، وتتحدى عائق لوني"[44].

ففي نهاية المطاف تغلب اللون وصوت الحياة، ولون الحناء على رق العبودية، ولكن بطموح أقل، وإرادة أكبر.

كما لاحظت ورود لفظة المرأة بدل الزوجة في بعض المقاطع من الرواية، وقد علمت أنالمرأة تطلق على العلاقة الجسدية فقط بين الرجل والمرأة دون توافق فكري ومحبة (امرأة نوح) (امرأة لوط) للخلاف الإيماني بينهما (امرأة فرعون) (وامراته حمالة الحطب).

اما الزوجة فعند توفر التوافق الفكري والجسدي﴿قلنا يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة﴾﴿يا نساء النبي قل لأزواجكن﴾.

الصاحبة لغياب كلا العلاقتين الفكرية والجسدية﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وابنه، وصاحبته وبنيه ﴾لانقطاعها بسبب أهوال يوم القيامة.

﴿ أنى لكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴿غياب العلاقة الفكرية والجسدية﴾ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾.

**الخاتمة:**

استطاعت الكاتبة جميلة طلباوي تصوير واقع المرأة الصحراوية المليء بالتهميش والقهر،من خلال نساء القصر التيماوي،فكانت صفاحاتها ضربا من السحر والجمال .

**مكتبة البحث:**

[1] - عبد الله محمد الغذامي : المرأة واللغة،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ، 1، 1996 .

[2] - حسين المناصرة : النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث،أربد، الأردن، ط1،2008 .

[3]- رشيدة بن مسعود: المرأة والكتابة(سؤال الخصوصية،بلاغة الاختلاف)، إفريقيا الشرق للنشر، ط2 ،المغرب، 2002 .

[4] - سوسن ناجي رضوان – الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر دراسات نقدية ، المجلس الأعلى القاهرة ، د.ط ، 2004 .

[5] - أحلام معمري: إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة، مجلة تقاليد، ع02،ديسمبر، 2011 .

[6]- عبد العاطي كيوان ، أوجب الجسد بين الفن والإسفاف مركز الحضارة العربية ، القاهرة د.ت.

[7] - Rolan Barth – Mythology.paris.1957

[8] - رياض القرشي: النسوية (قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب)، دار حضرموت للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط ، 1 2008 .

[9]- نعيمة هدى المدغري : النقد النسوي (حوار المساواة في الفكر والأدب)، منشورات فكر دراسات وأبحاث، الرباط، المغرب، ط ، 1 2009.

10- مفيد نجم: الأدب النسوي وإشكالية المصطلح، مجلة علامات في النقد، العدد ، 57 2005 .

11-جميلة طلباوي :رواية وادي الحناء.

**الهوامش:**

[1] - عبد الله محمد الغذامي : المرأة واللغة،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ، 1، 1996 ،ص :128

[2] - حسين المناصرة : النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث،أربد، الأردن، ط1،2008 ،ص :66

[3] - رشيدة بن مسعود: المرأة والكتابة(سؤال الخصوصية،بلاغة الاختلاف)، إفريقيا الشرق للنشر، ط2 ،المغرب، 2002 ،ص .75

[4] - سوسن ناجي رضوان – الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر دراسات نقدية ، المجلس الأعلى القاهرة ، د.ط ، 2004 ، ص61.

[5] - أحلام معمري: إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة، مجلة تقاليد، ع02،ديسمبر، 2011 ،ص :4 .

[6] - ينظر عبد العاطي كيوان ، أوجب الجسد بين الفن والإسفاف مركز الحضارة العربية ، القاهرة د.ت.ص 57-58.

[7] - سوسن ناجي رضوان ، الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر ، ص 62.

[8] - المرجع نفسه ، ص 64 .

[9] - سوسن ناجي رضوان – الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر دراسات نقدية ، المجلس الأعلى القاهرة ، د.ط ، 2004 ، ص65.

[10] - ينظر : – Rolan Barth
Mythology.paris.1957
Page – 56 -58

[11] - أحلام معمري:إشكالية الأدب النسوي بين المصطلح واللغة مجلة تقاليد، ع02،ديسمبر، 2011 .47

[12] - رياض القرشي: النسوية (قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب)، دار حضرموت للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط ، 1 2008 ، ص. 62

[13] - نعيمة هدى المدغري : النقد النسوي (حوار المساواة في الفكر والأدب)، منشورات فكر دراسات وأبحاث، الرباط، المغرب، ط ، 1 2009 ،ص .98

[14] - مفيد نجم: الأدب النسوي وإشكالية المصطلح، مجلة علامات في النقد، العدد ، 57 2005 ،ص164. ،165

[15] الرواية ص 37.
[16] الرواية ص 28.
[17] الرواية ص 29.
[18] الرواية ص 32.
[19] الرواية ص 41.
[20] الرواية ص 82.
[21] الرواية ص 82.
[22] الرواية.ص: 98
[23] الرواية. ص: 100
[24] الرواية. ص: 83
[25] الرواية. ص: 98

[26] الرواية. ص:74
[27] الرواية. ص :118
[28] الرواية. ص: 162
[29] الرواية. ص: 167
[30] الرواية. ص: 148
[31] الرواية. ص: 168
[32] الرواية. ص: 26
[33] الرواية. ص: 110
[34] الرواية. ص: 115
[35] الرواية. ص: 117
[36] الرواية. ص: 27
[37] الرواية. ص: 140
[38] الرواية. ص: 57
[39] الرواية. ص: 116
[40] الرواية. ص: 117
[41] الرواية. ص: 66
[42] الرواية. ص: 140
[43] الرواية. ص: 61
[44] الرواية. ص: 91